الحياة الأدبية فى دمشق

للأستاذ على الطنطاوى

لا شك أن (الرسالة) بسموها عن الفكرة الاقليمية الضيقة، وفتحها أبوابها لأبناء العربية جميعاً، ودعوتها إلى الاجتماع على التوحيد فى الدين، والفضيلة فى الأخلاق، والوحدة فى السياسة، والصحة فى اللغة، والجمال فى الأسلوب، والتجديد فى الأدب.. سيكون لها أثر كبير فى تاريخ الصحافة العربية بما سنت من هذه السنة الحسنة التى لم تعرفها من قبل كبريات مجلات مصر إلا قليلا، وبما بلغته من الجمال والاتقان، فى الشكل والموضوع؛ وسيكون لها أثر كبير فى تاريخ الأدب العربى، بما وضعت للأدب من منهج مستقيم، وما أحيت من الأسلوب العربى، وما قيضت من روائع الآداب الأجنبية؛ وسيكون لها أثر كبير فى التاريخ العربى العام، بما دعت اليه من الوحدة العربية، وما نشرت من أمجاد السلف، وما وضعت فى نفوس الناشئة من قرائها، من العمل للجامعة العربية الواسعة، لا الاقليمية الضيقة...

ولا شك أن «الرسالة» اليوم للأقطار العربية كلها، لا لمصر وحدها؛ فكما تفتح «الرسالة» أبوابها للمقالات الوصفية والقصصية، وللقصائد والبحوث التى يبعث بها اليها أدباء الشام والعراق وغيرها، فلتفتح أبوابها للفصول النقدية، والبحوث المستفيضة عن الحركة الأدبية فى هذه البلاد، ولو كانت قاسية شديدة على النفوس، ولو كشفت عن حقائق يحب بعض الناس ألا ينكشف عنها الستار؛ وليس من مصلحة الأدب فى شىء أن يظل أدباء مصر والعراق جاهلين مدى الحركة الأدبية فى الشام — مغترين بها — وليس من المصلحة أن يبقى أدباء الشام ومصر جاهلين مدى الحركة الأدبية فى العراق، بل يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية فى قطرهم، ومبلغ قوتها أو ضعفها، وسبب تقدمها أو علة قصورها، وأن يحللوا أدواءها وأمراضها، لنتعاون جميعاً على علاجها ومداواتها، وتقويتها وشد أزرها؛ والحياة الأدبية فى الشام أحوج شىء إلى المداواة والعلاج، إذا كان فى الشام حياة أدبية، لها وجود، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها؛ وأنا أشك فى وجود هذه الحياة، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها لأنى لا أرى علامة من علامات الحياة فى أدباء دمشق وأدبها ولا أستطيع أن أنفيها، لأن فى دمشق أدباء كباراً معروفين ولأن دمشق — كما يعلم الناس جميعاً — عاصمة من عواصم البيان العربى....

ولقد رجعت أعرض تاريخ الأدب فى دمشق منذ عهد الاحتلال إلى اليوم، وأنظر الآثار الأدبية الخالصة التى أخرجه أدباء دمشق فى هذه الخمسة عشر عاماً، فلا أجد إذا استثنيت مجلتى الرابطة الأدبية والميزان، ورواية سيد قريش لمعروف الأرناؤط، وكتابى المتنبى والجاحظ لشفيق جبرى، ورسائل أئمة الأدب لخليل مردم بك، إذا استثنيت هذه الكتب؛ وكتابين آخرين أو ثلاثة قد أكون نسيتها، لا أجد أثراً أدبياً له قيمة. وهناك كتب محمد بك كرد على: خطط الشام؛ والاسلام والحضارة، وغيرها، ولكنها ليست من الكتب الأدبية الخالصة، وإنما هى كتب تاريخ لا تدخل فى موضوع مقالى

على أن هذه الكتب التى استثنيتها ليست فى درجة واحدة من حيث قيمتها الأدبية، فبينا نعد (سيد قريش) عملاً فنياً كبيراً على ما فيها من ضعف العقدة الروائية، وتشابه المناظر، وتكرار الأوصاف، وغلبة النصرانية على أجل صفحاتها، نعد رسائل (أئمة الأدب) لخليل مردم بك، كتباً مدرسية، موضوعة لطلاب البكالوريا لا تبلغ أن تعد فى الدراسات القوية التى تستند إلى طريقة فى البحث معروفة، وتكشف عن نواح مجهولة من حياة الأديب الذى تبحث عنه ومن أدبه؛ ثم إن هذه الكتب نفسها إذا قيست بمدينة كدمشق، فى مدة طويلة كهذه المدة، لا تعدو أن تكون أثراً ضئيلا لا يدل على حياة.... وهذا الأثر على ما فيه من ضعف ينحصر فى فنين من فنون الأدب هما: القصة التاريخية، والدراسة التحليلية؛ أما سائر فنون الأدب كالقصة التمثيلية، والأقصوصة القصيرة، والصورة الوصفية، والمذكرات الأدبية، والتأملات الفلسفية والشعرية، والدواوين القيمة، والخطب البليغة، وغيرها من فنون الأدب، فلا نكاد نجد لأدباء دمشق فيها أثراً يذكر

من أجل ذلك لم أقل إن فى دمشق حياة أدبية، لأن ما نحن فيه ليس بالحياة ولا بشبيه الحياة، ولم أنف هذه الحياة لأن فى

دمشق أدباء ينتجون ، أو يستطيعون أن ينتجوا شيئاً ، وإنما أقول إن أدباء دمشق فى منزلة بين الموت الكامل ، والحياة الصحيحة ، هى السبات العميق ، والنوم الطويل الذى يشبه نوم الضفادع طول الشتاء ، إذ تدخل فى ثقب من الثقوب ، فتلبث الفصل كله كأنها قطع الحجارة ، لا تأكل ولا تشرب ، ولا تئن ولا تتحرك ...

وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها ؟ وأين هى منتجاتهم الأدبية ؟ وهل يكفى الشاعر أن يقول كل خمسة أعوام قصيدة واحدة تضطره اليها المناسبات اضطراراً ، ثم لا يكون فيها أثر من نفسه ، ولا تصف شيئاً من عواطفه ؟ وهل يكفى الكاتب أن ينشر كل عامين مقالة تطالب منه ، أو مقدمة كتاب يسأل كتابتها ؟ بل هل يستطيع أن يملك لسانه الشاعر فلا يقول شيئاً وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر من مصائب الأمة ونكباتها ، بل وهمومه هو ومصائبه وما يشاهده فى حياته فى بيته ، وحياته فى عمله ؟ . أليس فى حياته سرور وألم ، وأمل وقنوط ، وضحك وبكاء ؟ أفيضحك الشاعر فلا يغنى ، ويبكى فلا ينوح ، وتهز قلبه الحادثات فلا يقول شيئاً ؟ أنا لا أستطيع أن أتصوّر كاتباً أو شاعراً ، لا يكتب ولا ينظم ، وكل ما حوله يهيج نفسه ، ويثير عاطفته ...

إن أدباءنا يحتجون بأنهم لا يجدون مكاناً ينشرون فيه ، وإذا لم يجد الأديب سبيلاً إلى النشر ضعفت همته ، وانكسر نشاطه ، ولم يجد حافزا إلى العمل ، لأن فقد عنصر النشر من أكبر الأسباب فى هذا الركود الأدبى ... وهذا صحيح لا غبار عليه

وليس فى دمشق مجلات أدبية ، إلا مجلة صغيرة اسمها (الطليعة) يصدرها نفر من الشباب المثقفين الذين يحملون الشهادات العالية من أكبر معاهد أوربا ، ولكن لها منحى خاصاً لا يرضى عنه الناس كلهم ، وهى تمشى بخطى مضطربة . وربما اضطر أصحابها إلى إغلاقها كما اضطر من قبل أصحاب (الثقافة) إلى إغلاقها ، برغم أن أصحابها من صفوة أدبائنا ومفكرينا ، كخليل مردم بك وجميل صليبا وكاظم الداغستانى ؛ ثم إن الجرائد اليومية لا تعنى بالأدب عناية كبيرة ، ولا تخصص له صفحات دائمة تنفق عليها بسخاء ، وإن هذه الصفحات الأدبية التى تزيّن بها صنعدور بعض جرائدنا اليومية صفحات فارغة ، لا أظن أن أحداً ممن له صلة بالذوق الأدبى يرضى عنها ، وما أظن أن أصحاب الجرائد والقائمين عليها يرضون عنها ، أو يجدون فيها وفاء مما يؤملون . وإذا ألف الأديب كتابا أو قصة لم يجد الناشر ، وإذا أنفق عليها من ماله لم يشترها أحد ، لأن دمشق بلد تقرأ كثيرا ولكنها لا تشترى ؛ وهذه مجلة (الرسالة) ، لا تجد فى دمشق أديباً أو متأدباً إلا اعترف لك بأنها خير مجلة أخرجت للناس ، وأن العالم العربى لم يعرف مجلة مثلها منذ أنشئت أول مطبعة فى مصر ، ولا تجد أديباً أو متأدبا إلا وهو ينتظر يوم الثلاثاء ليقرأ الرسالة ، وبعد ذلك كله يباع من أعداد الرسالة فى دمشق كلها أقل من خمسمائة عدد ...

هذه حجة الأدباء فى تقاعسهم عن النشر ، وهى كما ترى حجة مقبولة ، ولكنك إذا سألت القراء لم لا يشترون ، احتجوا بأن الأدباء لا ينشرون ، وإن تقاعسهم وكسلهم علم القراء الزهد فى الآثار القيمة والانصراف عن شرائها . ، وأنه لا بد من أن يضحى الأدباء بقسط من أموالهم وشهرتهم حتى يستعيدوا القراء الذين فقدوهم . على أن الذنب فى رأيى ذنب المدارس والمدرسين ، لا ذنب الأدباء ولا ذنب القراء ، فليس فى الشام اليوم من دروس الأدب إلا هذا المقدار القليل الذى يتعلمه الطالب فى مقرر البكالوريا . وهذا المقدار لا يحق حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، ولا يصنع شيئاً أكثر من تبغيض الطلاب فى الأدب ، وتسويده فى أعينهم ، ذلك لأن شعب الأدب فى صفوف البكالوريا تسير فى طريق عوجاء أبعد ما تكون عن بث الملكة الأدبية فى نفس الطالب . وكيف تكوّن الملكة الأدبية طائفة من أخبار الشاعر وأشعاره يستظهرها الطالب من غير أن يفهمها غالباً ، ويحتفظ بها فى دماغه إلى يوم الامتحان ، فاذا أدّاه ونال الشهادة أهملها ، أو دخله الغرور فظن أن معنى (بكالوريوس فى الآداب) كاتب أو أديب ، فزهد فى المطالعة ، وانصرف عنها أو طالع ما يقع تحت يده من الكتب والمجلات حتى ابتلى بسوء الهضم ، وأصيب بالتخمة العقلية ... فترك القراءة وذهب إلى النَدِىّ (القهوة) يقطع عمره فى النرد والشطرنج ثم يعمد إلى الكتابة فى موضوع علمى أو فلسفى دوّنت فيه عشرات المجلدات من غير أن يقرأ منها شيئاً ...

ثم إن طلاب شعب الأدب فى صفوف البكالوريا لا يستطيعون

أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة ، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الغريزة (الفسلجة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد ، وقواعد التحليل الأدبي ، لا لأن الطلاب كسالى أو بلداء ، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسيغونه ، ويدرسون الرياضة فيفهمونها ، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به ، ويقبلون على بعضها ويحبونه ، ويجدون لذلك كله أثراً في نفوسهم ، فاذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلذوه ولم يبق في نفوسهم أثراً

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها ، أو انتدبهم لها من بيدهم مقاليد الأمور ، لشهرتهم الأدبية أو لشهاداتهم العالية ، أو لشيء غير ذلك له صلة ضعيفة ، أو لا صلة له بالأدب قط . وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين : رجل ثقف الأدب العربي القديم ثقافة حسنة ، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها ، وبلاغتها وعروضها ، ونقدها وروايتها ، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حق فهمها ، وينقدها نقد بصير بها ، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية ، وجهله قواعد النقد الحديث

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة ، وعرف مناهج البحث ، ومذاهب النقاد ، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي ، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي ، وجهل علوم العربية ، فغدا لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلا عن نقده أو الحكم عليه

ثم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب ؛ وإن فيهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً ، ولا كاتباً مجيداً ، ولا ناقداً بصيراً ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . فكيف لمعرى نطالب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب ؟ إن مثل هذا الطالب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه

* * *

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام ؛ وهذا موطن الضعف فيها ؛ فلا صلاح لها إلا بتقويته ، ولا نجاح لأمة لا تسخر أدبها لخدمة قضيتها . فهل يبدأ في حياتنا الأدبية « عهد الاصلاح » المنتظر ؟

علي الطنطاوي

أزمة أوربا الدينية

في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

يخيل الينا — كما يرى الكثيرون — أن التصوف هو أ حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقة قال ابن خلدون : « وأصله — أي التصوف — . . . طريقة ا والهداية[1] » وقال أيضا : « وتم (بالمجاهدة) وجود النفس ال لها من ذاتها وهو عين الادراك[2] » وقال الأستاذ لالاند :

« Le mysticisme est : .. , croyance à la possibilité d'une ion intime et directe de l'esprit humain en principe fon- mental de l,étre [3]

أي أن التصوف هو اعتقاد في امكان حصول اتحاد تام مبا بين الروح وحقيقة الانسان . وقال الفيلسوف برجسون

« Le grand mystique serait une individnalité qui fran- irait les limites assignées à l'espèce par sa matérialité,qui ntinuerait et prolongerait ainsi l'action divine [4]

ومعناه أن الصوفي الحقيق هو الذي يتخطى حجاب الحس الذ وضعته الطبيعة البشرية ليواصل بذلك العمل الالهي

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطي الدين وهما الاعتقا والعمل . فنلاحظ إذاً أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينة إلا القليل منهم من ظل يعمل بعيدا عنه في الظاهر . ولما كا للروح العلمية اتجاه يختلف عن الاتجاه الديني في كثير م أغراضه وميوله ، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص لهذا سنقصر بحثنا الآن على حقيقة الايمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة القاهرة ص ٤٠٨

(٢) مقدمة ص ٤١٠

(٣) Lalande : Vocabulaire de la philosophie-P. 496. Paris 1932

(٤) Bergson : Lea deux Sources de la morale etc ... — P. 215.Paris 1912